مواقِف ومآرِب

ارتكبت إسرائيل مجزرة رهيبة في حربها على مخيّم اللاجئين الفلسطينيين في جنين كما على المدينة القديمة في نابلس. ومن المتوقّع أن تُواصل إسرائيل مجازرها خدمةً لأهدافٍ جهنّمية تُبيتها، منها إطلاق موجة عارِمة من التهجير بين الفلسطينيين على غِرار ما تمّ في دير ياسين إثر إعلان قِيام الكيان اليهودي في فلسطين قبل أكثر من نصف قرن، إذ اشتدّت حركة النزوح بفعل المجزرة. ومعروفٌ عن السفّاح شارون أنّه يحمل في حقيبته مشروعاً لاقتلاع الفلسطينيين من ديارهم سبيلاً لتحقيق حلم الصهيونية في إقامة كيانٍ يهودي يمتدّ من البحر إلى النهر.

ومن أهداف شارون في ارتكاب المجازر، ترويع الناس في كل الأرجاء الفلسطينية ردعاً للعمليات الاستشهادية التي يُنفّذها فلسطينيون، خصوصاً بعد أن برز الاستشهاد سلاحاً عَصِيّاً على آلة الحرب الإسرائيلية المتطوّرة، كما ظهر أنّه قد يؤدّي إلى ترحيل المستوطنين اليهود إلى خارج الأرض الفلسطينية. إلى ذلك فإنّ مُسلسل المجازر الإسرائيلية في حقّ الشعب الفلسطيني إنما يُعبّر عن ازدراء حكام إسرائيل للشعب الفلسطيني والتعاطي من ثم معه وكأنّما هو من غير البشر، ولا يتمتّع تالياً بما تتمتّع به الشعوب من حقوقٍ بديهية مشروعة.

وتُعبّر المجازر المُنفّذة عن مقدار الحِقد والضغينة والعنصرية التي يضمرها الإسرائيلي ضدّ الشعب الفلسطيني. إنّ الإسرائيليين يزعمون استهداف من يُسمّونهم إرهابيين، ولكنهم في الواقع يُنفّذون عدوانهم الغاشم على كل الشعب الفلسطيني من دون تمييز.

إذا كان الإرهاب تعريفاً يشمل أيّ تعرّضٍ للمدنيين فإنّ إسرائيل تمارس من الإرهاب في حقّ الشعب الفلسطيني ما لا يُقاس بما يُنفِّذ المقاومون الفلسطينيون من عملياتٍ استشهادية، علماً بأنّ السيد ياسر عرفات تبنّى هذا التعريف للإرهاب إذ دان جميع العمليات العنفيّة التي تستهدف مدنيين إسرائيليين أو فلسطينيين، وذلك في بيانٍ صدر عنه في ١٣/٤/٢٠٠٢ تيسيراً للقاء كان يسعى إليه مع وزير الخارجية الأميركي في مكان احتجازه في رام اللّٰه.

إنّ إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني يتبدّى في هجومها البربري على مخيمات اللاجئين والأحياء الشعبية في المدن الفلسطينية كما يتبدّى في الحصار اللا إنساني الذي تضربه إسرائيل حول التجمّعات الشعبية في شتّى الأرجاء الفلسطينية والذي حجبت عن الناس بفعله الماء والغذاء والدواء، ومنعت عنهم النجدة الصحية والطبيّة، كما قطعت عنهم المدد من الماء والطاقة. لا بل يمكن القول إنّ استمرار إحتلال إسرائيل للأراضي العربية بالقوّة العسكرية الغاشِمة، مُتحدّيةً القرارات والقوانين والأعراف الدولية، هو من صميم إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل. مع كل ذلك فإنّ الإدارة الأميركية تحاشت حتى اليوم تسمية الأشياء بأسمائها، فلم تنعت الارتكابات الإسرائيلية بالإرهاب.

كثيراً ما تُبرّر الإدارة الأميركية الممارسات الإسرائيلية باستحضار حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. إنّه في واقع الأمر دِفاعٌ عن الاحتلال والعدوان والتنكّر لحقوق الإنسان الفلسطيني في وطنه، وهو دفاعٌ عن كل الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها إسرائيل في حقّ الإنسانية. فمن سوء حظ العرب أنّ أميركا تكيل العدل بمكيالين في كل ما يتعلّق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي. إنّها تحُلّل لإسرائيل ما تُحرّم على العرب.

تُطالب إسرائيل رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية السيد ياسر عرفات بالإجهاز على ما تُسمّيه الشبكات الإرهابية، وكذلك تفعل الإدارة الأميركية في ما يُشبه رجع الصدى للموقف الإسرائيلي. وكلاهما يعرف حقّ المعرفة أنّ السلطة الفلسطينية لا تملك القدرة العسكرية اللازمة لتحقيق هذا المطلب، كما أنّ كليهما يعرف أنّ المسألة ليست مسألة بُؤَر أمنيّة أو إرهابية يتعيّن اجتثاثها، وإنما

الأمر يتعلّق بثورة شعبٍ بأسره لحقوقه المشروعة في أرضه. فكيف تستطيع أيّ سلطةِ الإجهاز على شعبٍ بأسره.

إنّ حقيقة ما ترمي إليه إسرائيل، واستطراداً أميركا، من هذا المطلب هو تفجير حربٍ أهلية بين الفصائل والتنظيمات الفلسطينية يكون من جرّائها صرف الشعب الفلسطيني عن مقاومة الاحتلال وإغراقه في لجّة نزاعات داخلية، وبالتالي إجهاض انتفاضة هذا الشعب في وجه الاحتلال الإسرائيلي. إنّ استجابة هذا المطلب سيترتّب عليها حتماً في أحسن الاحتمالات حالة مواجهة مُسلّحة بين السلطة من جهة وكافة التنظيمات والفصائل المقاومة من جهةٍ ثانية، وفي أسوأ الاحتمالات حالة اقتتال شاملة بين مختلف التنظيمات والفصائل. وهكذا فإنّ إصرار إسرائيل، واستطراداً الإدارة الأميركية، على هذا المطلب إنما يرمي إلى إثارة فِتنةٍ فلسطينية تنهي الانتفاضة وتريح الاحتلال. واللافت أنّ الساحة الفلسطينية بقيت حتى اليوم متماسكة تماسُكاً رائعاً لم تقوَ إسرائيل على اختراقه لحظةً واحدة. فكانت الوحدة الوطنية الفلسطينية هي الدرع الواقي للانتفاضة.

ثم إنّ إسرائيل، في تَصدّيها للانتفاضة، كانت حريصة على تقويض البُنيَة التحتيّة للسلطة الفلسطينية، فدمّرت المخافر والمكاتب والمراكز، وقتلت من قتلت، واعتقلت من اعتقلت من رجال الأمن الفلسطينيين، فلم يبقَ في يد السلطة الفلسطينية أداة لمحاربة الفصائل والتنظيمات المقاومة حتى ولو أرادت ذلك، وهي بالطبع لم تَكُن في هذا الوارد من قريبٍ أو بعيد. وهذا يُعزّز الاعتقاد أنّ دعوة إسرائيل، ومن ثم أميركا، السلطة الفلسطينية للإجهاز على ما سمّته بُؤَر إرهاب، لم يكُن القصد منها سِوى إثارة فِتنَة أو تفجير حربٍ أهلية في فلسطين.

كذلك كان القصد من مُطالبة إسرائيل، بخلاف أميركا هذه المرّة، بتبديل القيادة الفلسطينية بإعلان عدم استعدادها للتفاوُض مع ياسر عرفات. فالقصد الحقيقي من هذه المُطالبة إحداث فراغ في القيادة الفلسطينية يستتبع صِراعاً بين الفلسطينيين على الخِلافة. ثم بأيّ منطقٍ تُنصّب إسرائيل نفسها مرجعاً يقرّر هويّة القيادة الفلسطينية، علماً بأنّ ياسر عرفات انتخب أساساً من الشعب رئيساً للسلطة؟

ما زال العرب يتطلّعون إلى أميركا كي تكون الحَكَم العادِل في اجتراح الحلول لقضيّة فلسطين. وفي انحياز الإدارة الأميركية المُطلق لإسرائيل بات يبدو وكأنما ليس لأميركا سياسة أو استراتيجية في الشرق الأوسط، بل هناك سياسة أو استراتيجية إسرائيلية تتبنّاها أميركا.

فإلى من لا يزال يقول إنّ باستطاعة الإدارة الأميركية أن تكون وسيطاً شريفاً بين العرب وإسرائيل نقول إنّ العرب في حاجةٍ إلى وسيطٍ يوصلهم إلى أميركا. هذا مع العلم أنّ التجارُب دلّت أنّ العرب، إذا وحّدوا صفّهم وموقفهم، يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم على أميركا. وكان آخر الشواهِد على ذلك جولة نائب الرئيس الأميركي تشيني على بعض العواصم العربية للحصول على ضوءٍ أخضر عربي لضرب العراق، فجوبِهَ برفضٍ عربي إجماعي، تجلّى في نتائج قمّة بيروت العربية، الأمر الذي حَدا بالإدارة الأميركية إلى صرف النظر عن مشروع ضرب العراق أو على الأقل إرجاء الضربة ريثما يتأمّن لها الضوء الأخضر العربي، أو بعضه.

جريدة السفير في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢